المرتكزات المعرفية للإقلاء الحضاري الأسس والتحديات

د. محمد بن السايح

أستاذ محاضر بقسم العلوم الإسلامية
جامعة عمار ثليجي بالأغواط- الجزائر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد:

مقدمة

يُعد التكامل المعرفي شرط أساسي في بناء الحضارة، وعليه لا بد من شروط تحفظ لهذه التكاملية حضورها لنبي أسسا نستطيع من خلالها إقامة نظام تتكامل فيه جوانب الحياة المختلفة بحيث تستجيب فيها للمتطلبات المتجددة مستعينا بالوسائل الجديدة التي أبدعها العقل البشري اليوم..

ولأن العلوم الإسلامية أساس متين في بناء الحضارة العربية والإسلامية اليوم فإنه يتطلب منا البحث المنهجي أن نركز فيه على المرتكزات الشرعية وكيف يمكن تنزيلها مع وجود تحديات متعددة الجوانب، وما هي الوسائل التي نستطيع استغلالها لتحقيق هذا التكامل قد النهوض وهل أحكام الشريعة الإسلامية قادرة على الاستجابة لمتطلبات النهضة...؟؟ وقبل الاجابة على هذه التساؤلات الهامة أقول:

اتفقت كلمة العقلاء منذ مطلع التاريخ الإسلامي أن الشريعة الإسلامية بما حوته من عقيدة ونظم تشريعية وأخلاق صالحة لكل زمان ومكان، ذلك أننا نجد مقومات هذه الصلاحية بما تُقيمه من عدل وما تحققه من مصلحة للناس في المعاش والمعاد راسخة في عقيدة ونظام هذا التشريع ..

وتتحلى ضمانات صلاحيتها وخلوها إلى قيام الساعة في النقاط التالية:

1- تكفل الله عزّ وجلّ بحفظ المصدر الأساسي لهذا التشريع وهو القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠٩﴾ 09 الحجر.

2- أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلاله، وقد ثبت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا تجتمع أمتي على ضلال)¹

3- أن الله قيض لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها وقد جاء في الأثر هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل سنة من يجدد لها دينها)².

وعليه فإن علماء الأمة والمجتهدين قد حرصوا ويحرصون على الدعوة إلى الله عزّ وجلّ ببيان أحكام الشريعة ومقاصدها ومحاسنها وصلاحياتها لكل زمان ومكان³، ونحن الآن في هذا العصر بحاجة إلى هذه المعاني، وأعني بالعصر (عصر العولمة) أو الأمركة كما يسميها البعض.

وقد طفق للعيان وبان للجميع مجموعة من التحديات التي تعطل أو تشوه أو تنقص من أحكام الدين والشريعة الإسلامية وتشريعها، مما يجعل الناظر يستجلي المرتكزات المعرفية للإقلاع الحضاري من ركाम تحديات عصر العولمة، ونأمل ان يكون هذا العمل المتواضع لبنة في بناء تصور صحيح ونافع يدفع الشباب والقراء في مجتمعاتنا إلى البحث والتعرف أكثر على النافع في الدنيا والآخرة.

تحديد المصطلحات

أ- المرتكزات المعرفية: أعني بها الأسس والقواعد العقلية والتصورية والتشريعية وغيرها التي يلزم وجودها لقيام حضارة تنطلق من ثوابت تأسست وفق مرجعياتنا الأصيلة

ب- الإقلاع الحضاري: هو النهوض بمفعلات التشريع الاسلامي القائم على فكرة التكامل المعرفي ليتجسد واقعا ثقافيا ومدنيا وتشريعيا يوظف في ضبط الحياة العامة والخاصة.

ج- **التحديات:** هي المشاكل التي تعترض النهوض وهي كثيرة ومتنوعة ومتشعبة سواء أكانت داخلية أو خارجية.

هـ- **ما هي العولمة:** هي صياغة العالم (فكريا، واقتصاديا، واجتماعيا، ولغويا...) في قالب واحد، يقوده فكر الغالب والمهيمن ماديا..⁴

وهذا التعريف هو صياغة عامة نتجت عن ملاحظة تقدم العالم الغربي وأمريكا، ومحاولة السيطرة وفرض المناهج والسياسات العالمية لتوجيه الدول والشعوب وجهة يرونها صحيحة وصائبة، وهذه العولمة في هذه الجوانب مخاطر سوف نحددها لاحقا إن شاء الله تعالى.

و- **التحديات الواقعة والمتوقعة:** هي كل ما يقف في وجه أهداف ومقاصد هذه الأسس والقواعد التي أشرت إليها سابقا سواء أكانت داخلية من المسلمين ذاتهم أو خارجية من غيرهم إلا أنني في هذا البحث أعني بما تكلّمُ التحديات التي كان مصدرها العولمة، وسميتها في البحث (سلبات العولمة) وما من شك في أن أغلبها خارجي، وقلت أغلبها ولم أقل كلها لأن ضعفنا وقابليتنا لهذه التحديات التي تعرقل إرساء العلوم الإسلامية في نظامنا وحياتنا موجودة في داخلنا.⁵

أسس المرتكزات المعرفية

أضع بين أيديكم مجموعة من أسس المرتكزات المعرفية التي يجب قيامها واستنهاضها وقد جمعتها في أربعة عناوين أساسية، وكل عنوان يتفرع بدوره إلى مجموعة عناوين فرعية:

1- الأساس الاعتقادي والنفسي:

وهذا الأساس ينطوي على الأصل المتين لكل فرد يرغب في النجاة والسعادة الأبدية، لأن به يتعرف الانسان على الله الواحد الخالق الواجب الوجود وبه تسكن نفسه وتطمئن رُوحه لما تجده من أمن في الإيمان الصادق بالله عزّ وجلّ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا

وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ 28 الرعد، وقال ايضا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ 82 الأنعام.

فالفعل الايماني يقتضي منا جميعا معرفة يقينية بالله عزّ وجلّ، تجعل الانسان يتعرف على الله سبحانه وتعالى، ومصدرنا لذلك هو خلق الله سبحانه وتعالى واستخدام العقل في النظر والفكر ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ 101 يونس، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ 17 الغاشية، وقد قال بعض علماء العقيدة أن الله سبحانه وتعالى حجب ذاته بصفاته وحجب صفاته بأسمائه وحجب اسمائه بافعاله فمن اراد الوصول الى الله معرفة بدا بالنظر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى ليصل إلى أسمائه وصفاته عزّ وجلّ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ 12 الطلاق وقال ايضا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١٩﴾ 19 محمد.

وقد انتاب هذا المفعّل تزحزح إلى اليمين وإلى الشمال، وعند أهل السنة والجماعة هو وسط بين طرفين طرف النافين له كالملاحدين الذي لا يعتقدون أن للعالم خالق، وبين أهل التثليث الذين يقولون أن الله ثلاثة (الأب والابن وروح القدس)، والبشرية اليوم في هذا المجال تتفاوت إلا أن الميل إلى الإيمان وإن كان يعلوه ضباب هو الغالب على تيار الكفر المطلق، وكلما نُقِيَت العقيدة كلما ضاقت دائرة العدد المؤمن بها، بل حتى في المجتمع المسلم الواحد في بلادنا العربية والإسلامية نجد أن أبناء العقيدة الإيمانية الواحدة على اختلاف مذاهبهم قد تعددت فيهم تسمياتها بين السلف والخلف إلى معتزلة وأهل السنة أو إلى معتزلة وأشاعرة وماتوريدية. وقد ثار في تاريخنا جدل حول هذا الموضوع انتهى فيما أرى إلى تفويض وهم السلف وأهل تأويل وهم الخلف من أهل السنة والجماعة، إلا أنني وبعد دراستي لمجموعة من المحققين من أهل العلم في هذا التخصص انتهيت إلى أن أمة السلف كانوا مفوضين في تأويل وأن خلفهم كانوا مؤولين في تفويض وكلهم وسط بين الخوارج الذين حاربوا عليا وبين غلاة الشيعة الذين تأولوا فيه ورفعوه فوق مكانه.

وهذا الفهم في العقيدة الإسلامية هو غالب لدى جمهرة كثيرة من الدارسين فضلا عن عوام الناس وأتباعهم، ولاشك أن المعرفة والبحث والتخصص يُجلب كثيرا من هذه الحقائق الغائبة في دنيا الناس المؤمنين.

فالإيمان بالله عزّ وجلّ وصفاته وأسمائه يعطينا الشعور النفسي والمعنوي الدافئ والحي والصحيح فנסعد ونسكن ونطمئن ونضحى ونشكر ونصبر، لأن ما يزيد هذه المعاني هو قوة الإيمان بالغيب ومصادرنا بالغيب لم يأت به عالما أو سلطانا أو فيلسوفا، إنما مصدرنا في ذلك الوحيين المعصومين (كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم).

وعلى ذلك قرّر علماؤنا على خلاف أهل الدنيا أن الحسن ما حسنه الشرع وأن القبيح ما قبحه الله سبحانه وتعالى، فكان مصدر التلقي عندنا هو الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كانت أهم خصيصة تميز هذه الشريعة الإسلامية بأنها شريعة ربانية في مصدرها وربانية في وجهتها⁶ لأن مقصود المكلف كما قال الإمام الشاطبي يجب أن يكون موافقا لقصد الشارع⁷، ومن هنا تم تقييد القواعد للباعث والنية، وجملة قواعد فقهية تضبط حياة الإنسان وتصرفاته ومعاملاته في الحوادث والنوازل وفقا لمقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها وأهداف وبالتالي أصبحت صالحة لكل زمان ومكان.

فتصحيح النية والقصد وتوجيههما إنما هو فرع عن حسن التصور لأنها بالنهاية تصديق له، ولا يكون ذلك نافعا إلا بالاعتقاد الجازم في الله عزّ وجلّ لأن العقل البشري رغم ما توصل إليه من جهود مادية يشكر عليها إلا أنه عاجز عن معرفة الخير والنفع المطلقين، ومن هنا دُعّم - كما يقول الغزالي أبو حامد - يرحمه الله - عقل الإنسان الداخلي بالعقل الخارجي وهو الوحي⁸، قال تعالى بعد أن بين مصير المؤمن والكافر ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ ﴾ 24 الحج، وأطيب كلمة عرفها الكون والتاريخ هي: (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وأفضل صراط هو الذي أوصى الله عزّ وجلّ به في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ كُفْرًا بِيَوْمِ الدِّينِ وَأَبْوَائِهِنَّ

إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ 151 الانعام.

2- الأساس العقلي والمعرفي:

ونعني به كل ما توصل إليه العقل والمعرفة من علوم وفنون وآداب وما تلا ذلك من صناعة واختراع واكتشاف جعل الإنسان يقفز قفزة نوعية في مجال اللغوم الطبيعية والفيزيائية والنووية والذرية وغيرها⁹.

وهنا لا بد من الإشادة بالجهود الغربية والأمريكية في هذا المجال، وقد قدمت للإنسان كل وسائل التقدم والازدهار والرفاهية، ويجب على العقل كل العقل بحكم قانون التسخير والاستخلاف أن يستفيد من هذه الجهود والتجارب كما استفادوا هم سابقا من علوم المسلمين ومنهجياتهم في البحث والدراسة والعلم، وهذه العلوم العصرية يمكن ان نسُميها (العلوم التي لا وطن لها) ويمكن أخذها من أي مصدر كان دون التقييد بدين أو لغة أو جنس، إلا أن ترجمتها إلى لغتنا وتسخيرها بما يكون أقوى وأجدى وأنفع من استخدامها بلغة مخترعيها، وقد نحى اليابانيون هذا المنحى في ترجمة العلوم وقوانينها إلى لغتهم فكان لهم هذا التقدم العلمي والتكنولوجي. وإذا كان هناك من حصر للعلوم فيمكن الإشارة إلى ثلاثة أنواع من العلوم العقلية يمكن الإشادة بها وهي:

أ- علم الهندسة الوراثية:

وما توصلت إليه لمعرفة هذا الإنسان وما يحويه من صفة وما أمده الله به من سنن وقوانين تنطق بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وما أمد الله به كل المخلوقات الأخرى. وقد غزت الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية كل مجالات البحث العلمي، وتعد الهندسة الوراثية علماً له أصوله وقواعده وأهدافه، وهو يبحث في قضايا دقيقة وحساسة لتعرف المزيد من الأسرار التي يتضمنها هذا الكون وما فيه ومن فيه، وكل يوم يخرج علينا هذا العلم بما هو جديد ومثير، مما يؤكد عظمة

الخالق وقدرته في الكون، وعجز العلم الحديث بوسائله وعلمائه عن معرفة الأسرار التي أودعها الله في خلقه ومخلوقاته.

والأمر الذي يفرض على العالم الإسلامي أن تكون لديه رؤية مستقبلية في مجال الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية تركز على الأسس الآتية:

1- وضع منهجية إسلامية رشيدة للأخلاقيات، بحيث تلتزم تعاليم الإسلام، وتمثل مقاصده وقيمه وغاياته دون أن تعطل العقل أو تعوق حرية البحث والتفكير؛ لأن مادة البحث التي تتعرض لها الهندسة الوراثية هي كل الكائنات الحية التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ولأن واجب البحث فيها فريضة إسلامية من أجل اعمار الحياة على الأرض وترقيتها.

2- توضيح موقف الشريعة الإسلامية من مختلف قضايا الهندسة الوراثية لحماية المجتمعات المسلمة من أخطارها وما تجلبه من مفسد وشور، وإبراز البعد الإسلامي في خدمة الإنسان والمجتمع، ووقايته وتحصينه ضد اندفاعات الغرب المتهورة، التي تضر بالإنسان وفطرته السليمة وتتنافى مع تعاليم الإسلام.

بـ علم الذرة:

وما قدم للبشرية من خير استطاعت أن ترقى به في هذا الكون بعد التعرف الى قوانينه وتدور في عالمه مما يجعلها تشتغل كل الطاقات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا ظاهرا وباطنا.

جـ. علم الإعلام الآلي أو الكمبيوتر:

هذا الجهاز الذي بات ينظم علاقات الأفراد والأسر والجماعات والمؤسسات والدول ويحفظ الإحصاءات ويجري العمليات ويعطي النتائج ويرصد التوقعات، بات من الضروري بمكان دراسته والمساهمة في معرفته واقتنائه وتطويره ليس على مستوى الحكومات والدوائر إنما أيضا على مستوى الأسر والأفراد، كما بات من الضروري أيضا ربط تطوراتها بالهاتف النقال الذي بدأ يأخذ نفس الدور الحاسم في الحاضر والمستقبل.

فالإنسان اليوم بغض النظر عن دينه ولغته ووطنه أصبح يتحرك ويسعى في دنياه اليوم وله من هذه العلوم الثلاثة وفروعها المدد والتوجيه والتحكم. إلا أن المؤمن بالله عزّ وجلّ زيادة على فضل دنياه فهي تزيده يقينا وإيمانا وقربا وأنسا بالخالق البارئ القهار الوهاب سبحانه وتعالى ذي العرش المجيد، سواء من خلال الآيات التي تحث على دور العقل والفكر والنظر والتدبر ومشتقاته وهي تقترب من الألف آية، وسواء من الآيات الكونية التي تحث على النظر فيها وهي في عدّها تقترب من العدد نفسه، وكل هذا عند المؤمن العاقل يوصل للغاية النبيلة التي خلقنا الله عزّ وجلّ من أجلها وهي الاستخلاف كما ذكر الراغب الأصفهاني¹⁰ أو العمران قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَاكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِإِذْنِهِ ﴾ 13 الجاثية.

3- الأساس التشريعي:

ونعني بذلك مجموعة الأحكام التشريعية والتي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تشمل الناس جميعا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم، وتشمل العمر كله في جميع مراحل الحياة في الدور الأربع: دار الرحم والدار الدنيا ودار البرزخ ودار القيامة.

وقد غطى التشريع الإسلامي جميع هذه المسافات في الدور الأربع، وبَيَّن الحقوق والالتزامات وحدد التكاليف في هذه الحياة الدنيا وبين لنا فيها الصراط المستقيم وقال لنا: ﴿

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾، وقال أيضا: ﴿ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿١٥٤﴾

﴿ 24 الحج، وبين لنا حسن الخاتمة لمن التزم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَّزَلَّوْنَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ 30 فصلت، كما بين لنا الجزء الأوفى يوم القيامة فقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ 107-108

الكهف، كما بين لنا الجزء لمن كفر به وصد عنه فقال تعالى: ﴿... فَأَلْبَسْنَا لَهُمْ كُفْرًا فَطَمَعَتْ لَهُمْ

ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٢﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ

﴿٢٢﴾ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ 19-22

الحج.

أما ما نعنيه من استنهاض هذا المفعل حتى نتقوى به في مواجهة التحديات هو أن نعرف جيدا هذا التشريع وشموليته وصلاحيته ومقاصده وأنه رحمه كله وخير كله وعدل كله ونلتزم به وندعو إليه ونصبر على ذلك.

ففي مجال العبادات يجب التركيز على روحها ومعانيها وذلك بتنمية الرقابة والخوف والخشوع والرجاء والمحبة في النفس حتى تكون سائقا إلى هذه الطاعات، وأنها ليست مقصودة لشكلها وطريقتها فقط أما هي هادفة إلى ثمرتها وآثارها على النفس وفي المجتمع، فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر والصيام لتقوى القلوب والزكاة لتزكية النفس والمال والحج للتأهب للقاء الله واليوم الآخر، وكل هذه المعاني وردت بحقها آثار تبين الغرض منها وأنها الأسس لبناء المعاملات وتصحيح النيات وإخلاص الوجهات.

وفي مجال المعاملات نجد أنها مبنية على قواعد الشريعة الإسلامية وأحكامها، ولدينا مجالات كثيرة نتعامل فيها مع المؤمنين ومع غيرهم، وأنه لا بد من احترام الشروط والعهود والوفاء بها، وقد شملت المعاملات جميع مناحي الحياة الشخصية والمدنية والتجارية وغيرها بل حتى العلاقات الدولية والإنسانية في حالي السلم والحرب، فضلا عن أحكام العقوبات عند التعدي أو التجاوز أو إلحاق الضرر بالغير، فقد شرعت أحكام القضاء والعقوبات في الجنح والجنيات وحل النزعات وفقا لأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية كما وجد الفقه الدستوري الذي ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ويفصل بين السلطات وينظم فيها سواء السلطة القضائية أو التشريعية أو التنفيذية.

كما وجد فقه المالية العامة أو الاقتصاد الإسلامي والذي يطرق بابه الغرب الآن بعد حصول الأزمة المالية العالمية عام 2009 الماضي، كما منح الإسلام المجال لأي جديد يخدم الأهداف العامة المتوافقة مع مقاصد هذا الدين، وبين أن الأصل في المعاملات الحل.

وطالما أن النصوص متناهية والأحداث والنوازل متجددة فقد استنبط الفقهاء قواعد قانونية سموها بالقواعد الفقهية كما أنشأوا الضابط الفقهي.. كل هذا بعد استقرار أحكام نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأصبحت هذه القواعد الفقهية أصولاً قانونية يستند إليها الفقيه في تقليبه لعلل الأحكام ومقاصدها يستهدي بها للوصول إلى الحكم الشرعي الذي لا يخرج عن الحكم التكليفي والذي تدور حوله أفعالنا وأقوالنا ومقاصدنا.

وهذا ما يشجع على فسح المجال للملكات الفقهية في العالم الإسلامي لأن تجتهد في الحوادث والنوازل الجديد وفق مقاصد الشريعة وقواعدها مستجلية من أدوات الفقيه وأصول الاستنباط الأساسية (الكتاب والسنة والإجماع والقياس) توجيه الأحداث ومستلهمه من الأدلة والأخرى (المصالح المرسله، والعرف والاستحسان) وغيرها ميدانا فسيحا لاحتواء كل جديد وتطوير كل قديم بما يتناسب مع ديننا وثوابته، وبهذا يخرج الفقه الإسلامي من دائرة التقليص والتقليد إلى دائرة الازدهار والتجديد والاستجابة لكل شؤون الناس أفراداً أو جماعات حكومات وهذا نوع من الجهاد الفكري الفقهي يحتاج إلى معرفة واستفاء بما يلامسه العصر من تقدم في مجال الحياة العامة.

ولدينا في العالم العربي كم وعدد هائل من خرجي كليات الحقوق والاقتصاد من محامين وقضاة وقانونيين واقتصاديين بمجرد الدعوة بالرجوع إلى مصادر التشريع الإسلامي سيجدون الأمر سهل وميسر جداً لأنهم درسوا القواعد القانونية في مجال الحياة المدنية وكيفية التعامل معها وتطبيقها يبقى أن يعرفوا أن حكم الله ساري في كل مكان وزمان، ويبقى أن يترجموها وفق ما يريد الله منا كمحامين أو قاضاة أو اقتصاديين ويعرف كل واحد منا أنه مسؤول يوم القيامة بين يدي الله عن تحكيم ما أراده منه وما وهبه له من علم وحكمه، ووفق ما شرعه له وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا فعل به"¹¹.

4- الأساس التربوي والأخلاقي:

هذا الأساس هو الهام في حياة الناس، وقد تركته الأخير لأن جميع ما تقدم يُفرضي إليه سواء في الجانب المعرفي أو الاعتقادي أو التشريعي أو غير ذلك، فهناك آداب وأخلاق يجب أن يتحلى بها طالب العلم ومُعلمه ومطبقه في شتى جوانب الحياة، وقد صنف الإمام ابن القيم عشرة أشياء لا فائدة من ورائها، وبدأها ب: (علم بلا عمل وعمل بلا إخلاص)¹²، ولا يمكن أن نصل إلى ثمرة العلم إلا بالعمل ولا نصل إلى ثمرة المعاملة إلا بالأخلاق، ولا تغرس الأخلاق إلا بالتربية والتوجيه السليم، لذا قال الشاعر حافظ إبراهيم:

لا تحسبن العلم لا ينفع وحده ما لم يتوجه ربه بخلاق

وقال أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهب أفعالهم ذهبوا

ومن التحديات التي نواجهها اليوم أن العالم اهتم بالعمل ولم يهتم بالتربية، بينما في التشريع الإسلامي نجد الاهتمام بالتربية بالغ الأهمية، وقد سماها القرآن التزكية، قال تعالى بعد أن أقسم بعشرة مخلوقات عظيمة: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ 01-15 الشمس، وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وهناك إشارات كثيرة إلى هذه المعاني النبيلة نستشفها من قوله تعالى مثلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ 58 يونس، ويكفي أن نشير إلى حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (أقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا)¹³ (الدين هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين)، وقد قسم العلماء الربانيون مفهوم الطهارة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وبحان الله ولا إله إلا الله تملآن

ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك
أو عليك كل الناس يغدو فبإحسان نفسه فموبقها أو معتقها)¹⁴ ، إلى أربع مستويات:

1- المستوى المادي (النجاسة).
2- طهارة الجوارح.

3- طهارة النفس من أمراضها.
4- طهارة القلب.

وقد وصف الله الكفار بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(١٦)
46 الحج، ويبين أن الحياة الحقيقية هي حياة القلب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(٢٤) الأنفال، وبين السعي الحمود في من استعمل الدنيا وسيلة وليست
غاية، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا ﴾^(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾^(١٧) 17-18
الإسراء

وهذه التشريعات الموجودة في ديننا وغيرها كثير لا تجدها في قوانين الغرب وإن كانوا يجرمون
شيئا من المخالفات كعدم الوفاء والغش والكذب لأن ذلك يتعارض مع تحقيق المصالح الدنيوية
وليس لأنه قيمة أخلاقية شريفة.

وما أحوجنا اليوم إلى هذه التربية والأخلاق كمسلمين أو دعاة أو معلمين أو قضاة أو
سياسيين أو إداريين أو غير ذلك، لأن الشائع اليوم في واقع التعامل الدولي أنه ليس بين الدول
مصالح دائمة ولا مبادئ قائمة، وهذه النظرة المصلحية يصدقها الواقع العملي، رغم أن بناء
العلاقات على المصالح الدنيوية فقط جلب الويل للأفراد والشعوب والأمم، فإذا خلت السياسة
والاقتصاد والاجتماع والقانون والفلسفة والعلوم والطب والتجارة والزراعة وغيرها من القيم
التربوية أصبحت أشباحا مخيفة وخلت العلاقات والمعاملات من المودة والرحمة واللطف
والإحسان والفضل.

ومن هنا بات لزاما على المؤسسات التربوية ترسيخ هذه المبادئ والقيم في حياة الناس
والأفراد وإعداد المربين وإشعارهم بالأمانة وأهميتها في حياتنا وثقل المسؤولية الملقاة على كل فرد

ومعلوم في شريعتنا أن خيرية كل واحد منها منبوبة بمدى أمره بالمعروف ونهيهِ عن المنكر قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ 110 آل عمران.

وكل واحد منا مطلوب منه تغيير المنكر كل حسب موقعه وتخصصه وصلاحيته فمننا من يغير بيده ومننا من يغير بلسانه ومننا من يغير بقلبه لقوله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان¹⁵، وقد أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من دائرة الإيمان من خلا قلبه من الرحمة فقال صلى الله عليه وسلم: "ليس من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيراً ويعرف لعالمنا حقه"¹⁶. فكان الذين لا يرحم ولا يوقر ليس بمسلم، وهناك أدب مع الله وأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدب مع الناس وإنزال الناس منازلهم أمر لازم وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة من توقير جلال الله: ذو الشيبة في الإسلام وحامل كتاب الله وحامل العلم مع من كان صغيراً أو كبيراً"¹⁷.

فنسأل أين نحن اليوم من هذه القيم والتوجيهات التربوية، فيجب أن نتقرب إلى الله عزّ وجلّ بالتأدب مع العالم والإمام والكبير والصغير بل والرفق بالحيوان، والأمر في هذا الموضوع يطول، ونقتصر على ما ذكرت، والله هو المرفق والهادي إلى سوء السبيل.

آليات تفعيل هذه الأسس:

رصدت خمس آليات رأيتها جديدة وصالحة للقيام بمهمته استرجاع القوة إلى النفوس والقلوب والعقول حتى تقوم بدورها المنوط بها في هذه الحياة التكليفية وهي:

1- آلية التوجه المعرفي الصحيح: ونعني بها التوجه الصحيح الرامي إلى المعرفة الصادقة بدءاً بمعرفة الله وانتهاء بمعرفة الكون وما فيه من قوانين ونظم وقواعد، وكلما صحت لدينا معرفة الكون ازدادنا يقيننا بمعرفة المكون سبحانه وتعالى، كما أن هذه الآلية تدعو إلى اقتحام العقل

وفسح مجال الاجتهاد له في دينا الحياة والمعاملات ليقتمح جمال الذرة والبيولوجيا والكمبيوتر، وغيرها من علوم العصر فضلا عن العلوم الإنسانية الأخرى.

كما أن فسح المجال لهذه العلوم وارتفاقها لا يجعلنا ننسى مجال العلوم الإسلامية وتخصصها وما تحمله من قيم ومبادئ لإسعاد الإنسان والبشرية من خلال تشريعاتها في مجال العقيدة والعبادة والمعاملات والنظم والقيم الأخرى وما تدخره للمؤمن من تأمين أخروي يُضحّي ويصبر من أجله في هذه الحياة الدنيا لتحقيق هدف العبادة والعمارة والاستخلاف والنصرة ولنتذكر جيدا أن البشرية لم تسعد إلا في ظل فكر إسلامي تعاون فيه العلماء مع الحكام¹⁸ وولاية الأمر وهما قاعدتا التفعيل الأساسية مع انضمام وتعاون المؤسسات والجمعيات الفاعلة معهم.

2- آلية إصلاح المنظومة التربوية في جميع مراحل الدراسة: وهذا الإصلاح يجب أن يكون مستمرا ودائما ولا يختص فقط بتغيير المناهج وتطويرها بل يتعدى ذلك إلى إعداد وتأهيل المرابي والإداري سنويا وفق الأهداف التربوية الكبرى المؤسسة مؤتمنة على عقول وقلوب مجتمع عربي مسلم.

3- آلية تفعيل دور مؤسسات المجتمع المدني: ويتم ذلك من خلال تشريعات وقوانين تعطي صلاحيات متعددة وواضحة تتحرك من خلالها هذه المؤسسات لتنشط في ضوء تحقيق أهداف اجتماعية واضحة، سواء أكانت هذه المؤسسات ذات طابع خدمي أو ثقافي أو رياضي أو مدني أو غير ذلك، ويجب أن يكون لها رصيد دعم واضح من النظام ومن الشعب حتى لا تعتمد في تسييرها على الصدقات والمتبرعين أو على جهات أجنبية لها أهداف ومطامع داخلية...

وإن المجال التطوعي في هذه المؤسسات يجب أن يكون له دور ومكانته فيها لنغرس مبدأ حُسن المواطنة في جميعنا الجزائري المسلم.

4- آلية إصلاح وتطوير المنظومة الإعلامية: وهذا ينطبق عليه ما ينطبق على المنظومة التربوية، نظرا للخطورة الهامة التي يحتلها الإعلام، فإن تأثيره قوى واضح، ويجب أن تفسح له الحرية ويقل عليه الضغط الحكومي ويفسح المجال للطاقت العلمية المتخصصة ومراكز الأبحاث

حتى يكون لها الدور والمساهمة والمشاركة في بناء مجتمع متخصص وآمن وألا يقوم بالدور الإعلامي فئة واحدة أو فصيل خاص بل ينبغي تعميمه على كل الطاقات لنشر الخير في المجتمع.

5- آلية تفعيل رسالة المسجد ومدارس القرآن والزوايا: وذكرت المسجد لأهميته اليومية في حياة الناس من خلال إسماع كلام الله العزيز الحميد ومن خلال الدور والتأثير التعليمي الذي يقوم به، ونظرا لقلة الفاعلية في مساجدنا وقلة تأثيرها وقلة مصداقيتها نؤكد على أهمية تطعيمها بالأساتذة والمربين المخلصين ليساعدوا الإمام في التوجيه والتثقيف وإعداد البرامج وإحياء المناسبات وكذلك يجب أن يكون للزوايا دور فعال من خلال برامج تربوية تُنتقي لتهذب السلوك وترشد المرشد المرشد إلى مراده من غير ضعة ولا طمع ولا نفور، وأن تعطي للزوايا برامج تخدم القرآن وعلومه والسنة وعلومها حتى يتأسس الطالب ويكون له تأهيل يجعله يؤدي دوره بعد التخرج داخل المجتمع، ولوزارة الشؤون الدينية والأوقاف دور ملموس نحو هذا الاتجاه مع الإشارة إلى أهمية المحافظة على دور المشيخة في الزوايا لأهميتها في التوجيه والتربية والسلوك.

هذه هي المعاني التي أحببت بيانها حتى لا نضل نجتز الماضي ونبقى عرضه للاختراق والتسييس والعوالة وتظل حصوننا غير مؤمنة الأبواب مفتوحة الفوائد تدخلها رياح الشمال تارة لتخرج منها مُلوثة تؤثر على جبهتها الداخلية، وهذا الخطر يجب تداركه، مع إيماني بالقاعدة التي تقول: (ما لا يدرك كله لا يترك كله).

العوالة وتحدياتها

ننتقل من هذا المحور إلى واقعنا الإسلامي المعاش ومنه إلى العالم كله بمسح ضوئي عام، فنؤكد الهيمنة الغربية والأمريكية علميا واقتصاديا وعسكريا وإعلاميا وغير ذلك مما يمتلكه الغرب من القدرة المادية والصناعية الهائلة والتي أفادت العالم وجعلته كأنه وطن واحد ونظام واحد.

إيجابيات العوالة:

أشير بداية إلى أن العوالة ليست شراكها كما يصورها بعض الكتاب¹⁹ بل أنها أفادت وأجادت في كثير من جوانب الحياة ونلخص إيجابياتها أو حسناتها في النقاط التالية:

1- ألغت المسافات الطويلة والبعيدة بين العالم، وجعلت الدول والشعوب تقترب بعضها من بعض، بل إننا نجد في بلادنا الإسلامية كثيرا من المسافات البعيدة، لكن وبفضل التكنولوجيا والصناعة المتقدمة تغلبنا على هذه العقبات والتي كان من المؤكد أن تؤثر سلبيا على السير الطبيعي للناس.

2- أنها ساهمت كثيرا في ازدهار مظاهر الحياة الدنيا، مما ساعدها على الاستقرار والتقدم، فنجد دولا تملك ثروات هائلة كدول الخليج مثلا، ومع ذلك لا تملك القدرة العلمية المحلية مما جعلها تستفيد من الخبرات والمهارات الغربية في استخراج مكنون خبراتها التي أودعها الله فيها وتسخر ذلك في ازدهارها واستقرارها، وكذلك دول أخرى عربية وإسلامية وإفريقية وآسيوية وأمريكية ...

3- وجود تنوع من الثقافات أدى إلى تقارب وتفاهم الحضارات وذلك بوجود نوع من الحوار بين الفاعلين في المجتمعات المدنية وغيرها، وهذا أسس لوجود نصره من غير المسلمين للقضايا العادلة في الأسرة الدولية مما جعلنا نشاهد غير المسلمين يتعاطفون مع القضية الفلسطينية مثلا، ولعل هذا الحوار أو هذه الثقافات المتنوعة وسّعت من قضية النظرة الضيقة لبعض الدول إلى فلسطين وأنها قضية (نصرة دينية) إلى قضية حق.

والسؤال الذي نطرحه الآن هو كيف يمكننا الاستفادة من هذه الإيجابيات للعمولة في عالمنا اليوم ونوظفها في نُظْمنا وحياتنا اليومية؟

والجواب هو أن أميّز بين هذه الإيجابيات وبين السلبيات حتى أتجنبها ولا أقع فيها وعليه فلا بد من معرفة هذه السلبيات لأنها تُعد من التحديات القوية المؤثرة على حياتنا الدنيوية والأخروية، ولأن انغماسنا الكلي أو شبه الكلي في العمولة دون تمييز يجعلنا تفقد أهم الأسس الحضارية والثقافية، بل وقد نخسر أكثر مما نستفيد، ومن هنا لا بد من الإشارة إلى انه لا انفتاح مطلق ولا انغلاق مطلق. إنما هو انفتاح بلا ذوبان وخصوصة بلا انغلاق.

أنواع التحديات

وتحديات العولمة كثيرة ومتنوعة وشاملة لجميع شؤون الناس والحياة، فهي كالسيل الهائج الذي يلتهم كل ما يجده أمامه دون تمييز، وسبب انحدار هذا السيل هو وجود طريق مُمهّد وعدم وجود مُوجِّهات تصرفه إلى جهة بعيدة عنّا، لذا نجدّها -أي العولمة- أثرت في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي والفكري والاجتماعي والقانون واللغوي والتاريخي... وسأحاول تسليط الضوء على هذه التحديات المختلفة.

1- تحدي فكري وثقافي:

في هذا المجال أشير إلى أن كل لحظة في حياتنا وكل يوم من أيامنا تُكتشف وتُخترع أشياء جديدة تُنتج معارف هائلة تُؤثر في أفكارنا وفي سلوكنا ومناهجنا. وأصبح من المقدر بمكان نقل الثقافات المتعددة والمتنوعة وأصبح تأثيرها ظاهراً لا على الفرد وحده بل تعداه إلى الخلية الأساسية في المجتمع وهي الأسرة وكذلك على الدولة بمؤسساتها وبرامجها، ونلاحظ أن أكثر من 80% من هذه الثقافات والأفكار والاختراعات هي أوروبية وأمريكية وقد ساهمت وسائل الإعلام الأوروبية في نقلها ونشرها.

كما نجد أن ثورة الاتصالات وترويج ثقافة الاستهلاك في هذا العصر قد جعلت الدول والمؤسسات في مجتمعاتنا المدنية تنبهر بما وتحذو حذوها وتجعلها القدرة المطلقة والمثل الأعلى لديها، وإذا برز أحد أبنائنا في هذه العلوم الكونية هيئت له أسباب البحث والعيش الكريم خارج وطنه في دول الغرب أفضل ممّا يهيأ له في بلادنا مما جعل ظاهرة (هجرة الأدمغة) تنمو وقد أشار إلى هذا بعض رؤساء الدول الإسلامية والعربية²⁰.

2- تحدي اجتماعي:

ويتمثل ذلك في شعور الفرد بالتبعية المادية لغير المسلم في ملبسه ومركبه ومقتنياته وسلعته، كما أثر ذلك على الأسرة وهدم أركانها من محاولة تقليص دور الأبوة التي قال الله فيها: (وقضى

ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) 32الإسراء. وتحاول أن تقلص من دور الأب والأم نحو الأبناء والبنات ..

كما نجد هذه العوملة تحاول رعاية الأخلاق..و التشريع لها بعيدا عن قيمنا وعاداتنا وتبرز أن أساس العلاقة بين الناس تنظمها مجموعة المصالح المشتركة، وهي المصالح الدنيوية فقط، وتجعلها هي الأساس لبناء العلاقة بين الأسرة والأبناء أو بين أفراد المجتمع والدول، وتحاول أن تلغي كفاية الأب في توجيهاته.

وهذا عمل كاف للقضاء على الترابط الأسري القائم عندنا على مبدأ الطاعة والبر كما أنه كاف لتفكيك المجتمع، وجعل الطفل يمكنه أن يتحرر ..وبالتالي قد يُستغل وأنتم تعرفون ما ينتج عن استغلال الأطفال والقصر في مجتمع غابت عنه القيم والمبادئ، في حين أن ديننا الإسلامي الحنيف يجعل الاهتمام بالطفل أولى الاهتمامات باختيار أمه وإسمه والعقيدة له وحضانه وتربيته وتوجيهه ومصاحبه وتزويجه وصيانه...

كما أن العوملة الحديثة²¹ تركز في جانبها الاجتماعي على إذكاء نار العصبية والطائفية بين أبناء المجتمع الواحد والبلد الواحد. فتقسم نظم العالم الإسلامي إلى معتدلين ومتطرفين وإرهابيين، وإلى مسلمين وغير مسلمين وإلى مسلمين ونصارى وإلى عرب وعجم وإلى أغنياء وفقراء وإلى سُنيين وشيعة وإلى عرب وأكراد أو قبائل أو أمازيغ وإلى ناطق بلهجات محلية مختلفة داخل الإقليم الواحد، وهذا يدعو إلى تأسيس العصبية والطائفية داخل المجتمع الواحد وهو تناقض صارخ في عصر العوملة.

3- تحدي اقتصادي سياسي:

نجد العوملة الآن تقود العالم بقوة أحادية، وهذا بين التأثير في سلوك الدول وأحلاقها من خلال القرارات السياسية التي يحاولون من خلالها ضبط دول العالم الصغيرة أو الدول النامية أو الدول الإسلامية بما فيها الدول العربية وهي تصدر لنا قوانين الحقوق (حقوق الإنسان والأفراد)

ورسم سياسة تجعل الفرد حرا في جُل ما يرغب ويهوى وبالتالي يصبح منحرفا، وهذا الانحراف يعد سلوكا طبيعيا عندها.

كما تحاول فرض سياسة تعليمية تبحث الخصوصية الثقافية والحضارية لتجعل مسألة الانتماء للهوية الوطنية والإسلامية ضعيفا، بل مِثًا مقابل الانتماء الدولي العالمي الجديد²²..

كما أنها في المجال السياسي تؤكد على السياسة الثقافية التي تتجاوز مبادئ الإنسان وتاريخه لتروج لنظام جديد يسهل فكرة التطبيع على جميع المستويات.

و أنها في المجال الاقتصادي تشجع وتقنن بترويج فكرة الربا في جميع القروض والمعاملات البنكية، وتشجع المؤسسات المالية ورجال الأعمال على ذلك فضلا عن الترويج للسلع المحرمة في شريعتنا بدعوى تنمية الاقتصاد والسياحة وغير ذلك.

هذا فضلا عما تحمله السلع المستوردة من أخلاق معها إلى العالم الإسلامي والعربي، ومن سلوك تؤثر فيه على أعرافنا وقيمنا، ونلاحظ ذلك من خلال تأثير الدعاية الاقتصادية لأي منتج غربي أو أوروبي في شاشاتنا الوطنية أو الشاشات الدولية، وكيف يُستغل جسد المستحسنتات في ذلك وتأثيره على أبنائنا، بل نجد شعارات وعلامات تجارية معلقة على الثياب أو في حقائب أبنائنا، أو على بعض الأماكن الحساسة.. في الجسد تكاد تنسي شبابنا في معرفة ألوان العلم الوطني..! هذا فضلا عما تحدثه من تأثير أخلاقي ونفسي داخل الشباب والشابات.

كما نلاحظ في عصر العولمة سياسة اقتصادية تشجع من خلال مؤسساتها المالية إبرام عقود ومعاهدات مع دول دون أخرى بسبب بعدها أو قربها من السوق الأوروبية المشتركة أو مما كان يسمى (الحات) أو مما أصبح يعرف بـ (منظمة التجارة العالمية) التي أصبحت دول العالم الإسلامي تتسابق في استرضائها لتقبل عضوا في مؤسستها وقد ساهم هذا في وجود الطبقة داخل المجتمع الواحد وبين الدول العربية والإسلامية وعمق التفاوت الاجتماعي مع غياب مفعول دور الزكاة وتأثيرها.. وأصل لمبدأ الكراهية داخل أبناء المجتمع بل وبين الدول العربية والإسلامية، مما ساهم في طمس معالم الهوية الاقتصادية الإسلامية وما يترتب عليها من قيم

ومبادئ وثوابت وساهمت في إنشاء حروب بين دول شقيقة وفي داخل مجتمعاتها كما هو واقع الآن. وساهم في جعل الثروة عند فئة دون أخرى، وجعل الدول النامية تركز على الاستهلاك الواسع في كثير من المجالات وغزا المنتج المحلي والوطني.

هذا فضلا عن سيطرة الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات على التجارة العالمية والاستثمار.

4. تحدي تاريخي وحضاري:

ونعني بذلك استنبات بعض الأحداث التاريخية في عقول الأجيال والنظم المعاصرة لتصديق الروايات التاريخية المفتعلة قصد سيطرة هوية وعقيدة الغالب على المغلوب، وأسطورة المحرقة أو الهولوكوست المنسوبة إلى النازية ليست ببعيدة عنا، وذلك لاستجلاب قلوب العالم وثروته حتى يتعاطف مع اليهود المحتلين لفلسطين، ويعطيهم الشرعية الدولية للاحتلال والاعتداء ونحن الآن نسمع بمبدأ (شرعية الدفاع عن النفس) .

وهذه العبارة تبين لنا تحدي لغوي صارخ- وهو ما نعينه أيضا تحت هذا العنوان-، فجعلوا من خلالها القبيح حسنا والمنكر معروفا، وقد حدثنا القرآن الكريم عن فئة من الناس تجعل المعروف منكرا والمنكر معروف وتأمّر به قال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِمَصْهُرٍ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ 67 التوبة. كما استعملوا ألفاظا لطفوا بها الكبائر حتى لا تبقى كذلك كالجنس الذي سموه بالحرية وهم يسعون إلى زرعها في مدارسنا وجامعاتنا- أي ثقافة الجنس- وكيف يصبح الطالب معتدلا عندما يتعامل جنسيا مع مثله أو مع حبيبته مثلا.

ومن التلاعب اللغوي جعل القدس الشرقية في فلسطين منطقة متنازع عليها مثلا وجعل المقاومة الفلسطينية إرهابا، وتسمية المجازر الإسرائيلية دفاعا عن النفس، وتسمية المدافع عن حقه إرهابيا وهكذا وجعل القضية الفلسطينية للفلسطينيين وحدهم بقولهم (منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني)...

إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا²³.

وقديما كان الظلم بمقتضى الغلبة والبطش أما اليوم فيتم باسم العدالة والقانون في العالم²⁴، وانظر ستجد خمس دول دائمة في الأمم المتحدة تتحكم في العالم، ومن هنا نُنادي ونقول: بأن ضرورة الخُلُق كضرورة الخُلُق، والحركة الحقوقية والتشريعية بلا أخلاق حركة ظاهرية مهمة بالوسائل وليس بالمقاصد وهي بهذا عرضة للتكليف والتوجيه والتحرير كما هي مُعرضة للتعطيل أيضا.

وكلنا يعرف مجال التشريع في ميدان الأسرة في حرية الانصراف عن الزواج الشرعي واقتسام التركة بالتساوي وإضعاف قِوامة الرجل، وقيام العلاقة الزوجية على مسألة التعاقدية خالية من الود والرحمة، ومنع الطلاق والتعدد والولاية على القاصرة وغيرها.

فنحن أمام تشريعات عالمية زاحفة تحاول التهام الخصوصية الشرعية للأمة وهذا تحد جديد بالدراسة والاهتمام والنقد..

سبل مواجهة التحديات:

كل تحد من هذه التحديات يجب الوقوف عنده ودراسته وحله بما يناسبه بل وأخذ الحسن والجميل منه ومعالجة وطرح الفاسد أو غير النافع لنا، ولهذا العمل الكبير وسائل وطرق تختلف باختلاف كل عنصر من هذه العناصر كما وكيفا وطريقة، وهذا لا يعني أبدا العزلة أو الخروج من الصراع، إنما يعني أن الإسلام يؤمن بالتعددية الفكرية والثقافية للأمم والشعوب، وأنه لا يدعوا إلى اعتزال العالم، وإنما نأخذ ما يناسبنا ولا يتعارض مع مقاصدنا ونترك الباقي أو نحاربه حسب تعديده وأثره على مبادئنا وثوابتنا ومقدساتنا ووطننا وديننا.

وحب البقاء غريزة في الكائنات الحية، لكن بخصوصية كل أمة بما يتناسب مع إيمانها مع عدم إهمال ثقافة التسامح مع الآخر، وهذا لا يتنافى بعالمية رسالتنا التي تجعلنا نتحمل المسؤولية

الملقاة على عاتقنا باعتبار أن كل واحد فيها راعي ومسؤول عن رعيته²⁵، كما أشير في نهاية هذا المحور إلى أن أهم طرق مواجهة تحدي العولمة هو ما سنتحدث عنه لاحقاً إن شاء الله .

وأرغب هنا أن أشيد برسالة المسألة العلمية حيث لاحظت في بعض مكاتبات مراكش المتنقلة العام الحالي 2015م رسالة استوقفتني ضمن رسائل قضايا الاستئناف الحضاري عنوانه (ورقات في المسألة العلمية) للأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي، فاقنيتها ولما قرأتها وجدته يبين من خلالها الواقع المشهود ويرسم الأفق المأمول للمسألة العلمية ولمستقبل الأمة وكيفية الرقي بالمسألة العلمية، وسألخص أفكار هذه الرسالة الجميلة في أسطر التالية: 26

1- الواقع المشهود للمسألة العلمية يُلاحظ إهمالها لدى العامة والخاصة إن في المؤسسات الدينية أو التعليمية أو في وسائل الإعلام أو في مؤسسات البحث العلمي، ومن يهين يسهل الهوان عليه، فيجب أن نقف وقفة ضرورية للتأمل وأن نُراجع السير العلمي المرسوم وكذا الإعلام والحث العلمي مباني ومعاني، أهدافا ووسائل مواد واطر حتى لا نستثمر فيما لا ينفع ولا ننخرط في مشروع الغير.

2- إننا بحاجة ماسة إلى التجديد الذي يجب التمهيد له بإعداد وتوجيه الناشئة للهدف في مختلف المراحل والمراكز والمؤسسات العلمية والإعلامية، لأن التجديد كما هو روح تُنفخ فهو أدوات وجهود وقدرات وطاقات ووسط وجمهور..

3- رفع المستوى العام ينتج عنه رفع المستوى الخاص ليس في المجال العلمي فحسب بل وفي المجال الأخلاقي أيضا لننهض في صناعة أجيال قادرة على إنتاج وفعل الجديد..

4- إن النهضة العلمية التي نريد ليست في المفهوم الغربي ولا بالمفهوم التقليدي الموروث، إنما بالمفهوم القرآني الشامل الجامع للمرين في انسجام تام بين علم الغيب وثباته وعلم الشهادة وتجده، وعلى ذلك يكون إِبصار المستقبل للوصول إلى المنهج الصحيح.

5- الواقع المنشود للمسألة العلمية يكمن في عودة الاجتهاد للعلوم الشرعية المعللة والمحللة والمقومة والمركبة والمستجيبة لحاجة الأمة، اجتهاد ينطلق من الأصول إلى ما يُرضي الله

سبحانه وتعالى اجتهاد يجيي ما مات ويستدرك ما فات ويكمل النقص ويعيد للعلوم الشرعية سلطاتها وفرقاتها.

6- وهذه النقلة سبل تتلخص في إعادة إنتاج الإنسان القارئ فردا وجماعة مجتمعا ومؤسسات دولة وأمة، وبالوصول إلى ذلك يتأسس الفعل الحضاري والذي به ومنه ينهض وتتخلق الأفراد والمجتمعات..

7- ويقدر ارتفاع مستوى القراءة العام يرتفع مستوى البحث العلمي الخاص، وأخصر طريق ل: (أسلمة المعرفة) هو: (أسلمة العارف) أو الباحث أي الباحث باسم الله في شتى التخصصات وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

8- الذي لم يكن قارئنا باسم الله لم يكن باحثا باسم الله ووجود الأول شرط لوجود الثاني، لأن المنجزات الكبيرة تحتاج إلى جهود كبيرة ومن مجموعات كثيرة وفي مراحل متكاملة.

9- إننا بحاجة إلى علماء في مختلف المجالات الشرعية والإنسانية والمادية، كما أننا بحاجة ماسة إلى جيل استقام فأقام وأقسط فأشهد، جيل يستوعب الموجود ويحلل ويعلل ويركب من ذلك كله بناء لما ينبغي أن يكون بحكمة ورشد.

10- بهذا تُؤسس لجيل في مجتمع راسخ في العلمية والمنهجية والتكاملية يقيم الأصل ويبنى عليه الفرع وفق المقاصد العالية ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه إلى صراط مستقيم.

وهكذا نهى تلخيص ما أشار عليه الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخلي في المسألة العلمي لما له من علاقة متينة بموضوعنا.

الخاتمة المشتملة على توصيات:

ومن خلال ما سبق من بحث ودراسة لهذا الموضوع يُمكن تلخيص نتائجه ضمن النقاط التي أعتبرها توصيات بنفس الوقت:

- 1- أهمية تفعيل أحكام تشريعات العلوم الاسلامية في شتى جوانب الحياة المختلفة .
 - 2- لا بد من رسم خطة عملية لأسلمة المعرفة في مراحل وأطوار التعليم المختلفة
 - 3- ضرورة مراعاة التكامل في شتى مناحي الحياة المعرفية والعملية وانسجام التشريعات الوضعية معها.
 - 4- يجب دراسة التحديات في ظل نظام العولمة للتعامل معها أو تجنبها أو تجاوزها قصد الإقلاع السليم.
 - 5- أهمية استغلال الوسائل العلمية الحديثة وتفعيلها داخل المؤسسات المختلفة قصد الانطلاق الصحيح.
 - 6- وجوب تفعيل توصيات البحوث الهادفة والجادة قصد الروع وبصدق نحو البناء الحضاري الصحيح.
- يجب أن يعلم الإنسان أن التغيير فرض عين وأنه حق له وأنه لا بد له من السعي والإرادة ولا يتم ذلك في مجتمعاتنا العربية والإسلامية اليوم إلا بوجود معاهد دراسات متخصصة تقوم بأبحاث في مجالات مختلفة يشير بها على السياسي والحاكم والمسؤول حتى يهتدي بها في قراراته ومفاوضاتها وإلا بقينا نترنح في هذه الفجوة ما بين صاحب القرار من جهة والمثقف من جهة أخرى..
- وعليه فإنه ينبغي الإيمان بوجود تحديات معاصرة تواجه الهوية الإسلامية وللعالج والوقاية من هذه التحديات نوصي بالآتي.

- 1- سلبيات العولمة واقع يجب التحذير منه أثناء التعامل مع إيجابياتها.
- 2- إضفاء الروح الحضارية للدين الإسلامي من خلال تعليمه وتدريبه والاحتكام إليه.
- 3- رسم سياسات واضحة وليست شكلية تؤسس لإصلاح شامل في شتى شؤون الحياة (العلمية والتشريعية والعملية والتربوية...).

- 4- تطوير أداء المؤسسات المدنية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية للقيام بدورها الصحيح في الحياة (إعلاميا، فكريا وثقافيا، دينيا وروحيا).
 - 5- ترسيخ ثقافة شاملة تؤسس لفكرة المواطنة الحقة بدون انغلاق وتدعوا إلى الانفتاح ولكن من غير ذوبان، وتستوعب أبناء مجتمعاتنا في المهجر وخارج الوطن، ولا يكون ذلك إلا بمرجعية ذات تأثير وثقة.
 - 6- رصد ميزانية لتطوير البحث العلمي وفسح المجال في مجتمعاتنا للتخصصات الإسلامية حتى لا يواجهها التطرف من جديد.
 - 7- ضرورة حفظ وصيانة ثوابت أمتنا ومبادئها وتراثها مع التعامل بالمستجدات المعاصرة والانفتاح بطريقة هادئة.
- وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر

فضلا عن القرآن الكريم وكتب السنة المطهرة

- 1- شريعة الإسلام خلودها وصلاحتها للتطبيق في كل زمان ومكان د/القرضاوي ص13 دار الشهاب باتنة-الجزائر.
- 2- فكرة العولمة لحسين بن الحسن ص04 دار الكتاب العربي الجزائر
- 3- وجهة العالم الإسلامي ص40 لمالك بن نبي دار الفكر سورية ط/5 1986
- 4- وباء العلمانية وهل هو مبرر في العالم الإسلامي د/سفر الحوالي ص14 دار بن تيمية-الجزائر ط/1 1409 هـ وهي رسالة ماجستير من جامعة أم القرى
- 5- هجرة الكفاءات العربية دوافعها واتجاهاتها عبد القادر رزيق المخادمي ص22 وزارة الاتصال والثقافة دار هومة الجزائر 2000م
- 6- بين حضارة القوة وقوة الحضارة د/بوعلجة غياث ص65 دار الغرب ط1 2004م
- 7- الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإسلام ص101 د/ طراح ومنير سنو دار النهضة بيروت 2002م

- 8- الموافقات للشاطبي 168/2 مؤسسة الرسالة بيروت ط/1 1983م
- 9- الإرهاب الدولي وفقا لقواعد القانون الدولي لحلمي نبيل أحمد ص18 دار النهضة القاهرة.
- 10- مقاصد الشريعة الإسلامية ص64 وما بعدها للدكتور طه جار فياض العلواني دار الفكر.
- 11- نظر الخصائص العامة للإسلام د/القرضاوي ص36 مؤسسة الرسالة ط/3 بيروت 198
- 12- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي/ الريسوني ص158 المعهد العالمي للفكر الاسلامي 2007م
- 14- معارج القدس في مدارج معرفة النفس لأبي حامد الغزالي ص 10 وما بعدها، شركة الشهاب- الجزائر 1989م
- 15- الفوائد لابن القيم ص196 دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة 2000م.
- 16- الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البديري ص14 منشورات عالم الشباب بيروت 2000م.
- 17- أبحاث على النت لمجموعة من الباحثين تدور حول الإسلام والعولمة وآثارهما.
- 18- تخرّيج موسوعة الحديث الشريف على شبكة إسلام ويب.
- 19- كتاب ورقات في المسألة العلمية من طباعة مطبعة أنفو- برانت بفاس المملكة المغربية ضمن سلسلة قضايا الاستئناف الحضاري.

الهوامش:

- 1- أخرجه الامام الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما برقم 2167 .
- 2- المعجم الأوسط للطبراني رقم 6702.
- 3- شريعة الإسلام خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان د/القرضاوي ص13 دار الشهاب باتنة-الجزائر.
- 4- فكرة العولمة لحسين بن الحسن ص04 دار الكتاب العربي الجزائر.
- 5- وجهة العالم الإسلامي ص40 لمالك بن نبي دار الفكر سورية ط/5 1986.
- 6- انظر الخصائص العامة للإسلام د/القرضاوي ص36 مؤسسة الرسالة ط/3 بيروت 1988م.
- 7- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي د/ الريسوني ص158 المعهد العالمي للفكر الاسلامي 2007م.
- 8- معارج القدس في مدارج معرفة النفس لأبي حامد الغزالي ص 10 وما بعدها، شركة الشهاب- الجزائر 1989م
- 9- نقلا عن محاضرة في الملتقى الحادي عشر للقرآن الكريم بدار الإمام للدكتور عيسوي أستاذ بجامعة باتنة حول مفعلات المواطنة.

- 10- انظر تفصيل ذلك في كتاب: مقاصد الشريعة الإسلامية ص64 وما بعدها للدكتور طه جار فياض العلواني دار الفكر بيروت 2001 (سلسلة آفات التجدي).
- 11- أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رقم: 2354.
- 12- الفوائد لابن القيم ص196 دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة 2000م.
- 13- أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه رقم 2241.
- 14- أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 22303 ومسلم في صحيحه .
- 15- رواه مسلم في صحيحه رقم 73 وكذلك ابن ماجة وأبو داود وغيرهما.
- 16- أخرجه أحمد في مسنده برقم 6760.
- 17- أخرجه البيهقي برقم 536.
- 18- الاسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البديري ص14 منشورات عالم الشباب بيروت 2000م
- 19- وباء العلمانية وهل هو مبرر في العالم الإسلامي د/سفر الحوالي ص14 دار بن تيمية- الجزائر ط/1 1409هـ وهي رسالة ماجستير من جامعة أم القرى
- 20- هجرة الكفاءات العربية دوافعها واتجاهاتها عبد القادر رزيق المخادمي ص22 وزارة الاتصال والثقافة دار هومة الجزائر 2000م
- 21- بين حضارة القوة وقوة الحضارة د/بوعلجة غياث ص65 دار الغرب ط1 2004م
- 22- الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإسلام ص101 د/ طراح ومنير سنو دار النهضة بيروت 2002م
- 23- الموافقات للشاطبي 2/168 مؤسسة الرسالة بيروت ط/1 1983م
- 24- الإرهاب الدولي وفقا لقواعد القانون الدولي لحلمي نبيل أحمد ص18 دار النهضة القاهرة
- 25- رواه الشيخان انظر صحيح البخاري رقم 4816
- 26- انظر كتاب ورقات في المسألة العلمية من طباعة مطبعة أنفو-برانت بفاص المملكة المغربية ضمن سلسلة قضايا الاستئناف الحضاري.